الباب السادس

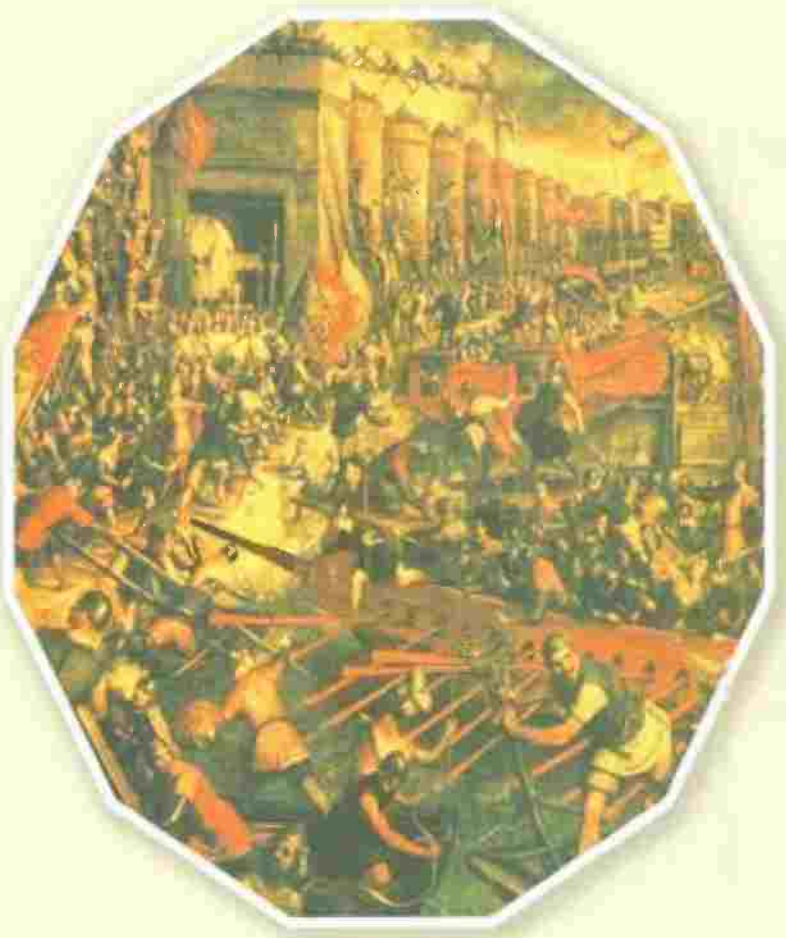

الحملة الصليبية الرابعة

- احتلال الصليبيين للقسطنطينية ، بدلاً من القدس
- حملة الأطفال

الحملة الصليبية الرابعة

سـنة ٥٩٩ - ٦٠١ هـ ١٢٠٢-١٢٠٤م.

قادة الحملة : مجموعة من الأمراء الإقطاعيين بفرنسا وعلى رأسهم بلدوين وتيبو الثالث وبونيفاس دي مونتسرات .

سـبب الحملة :

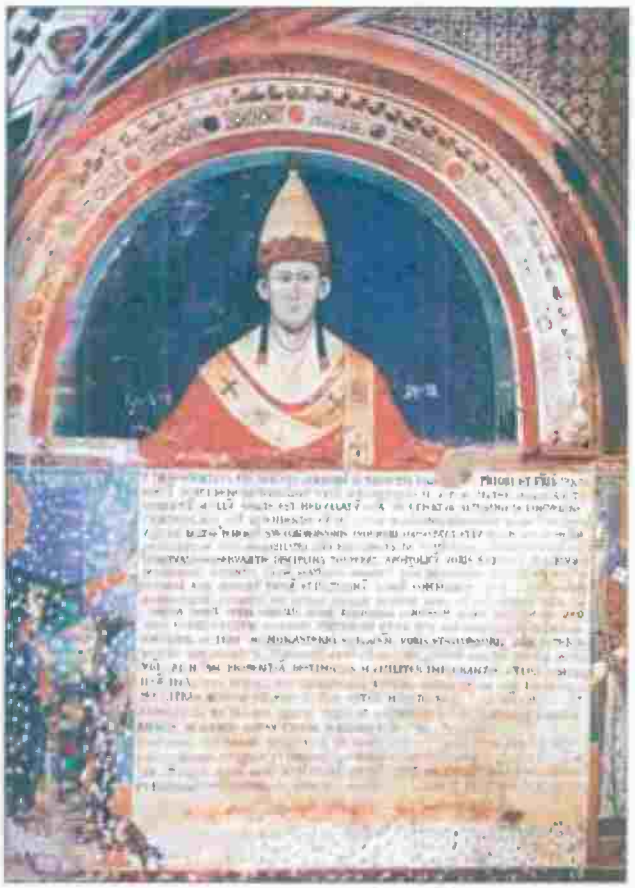

البابا أنوسنت الثالث

تعد هذه الحملة نتيجة مباشرة لوفاة **صلاح الدين** في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٣م. فمنذ وفاته دعا **البابا أنوسنت الثالث** إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين.

فدعا في منتصف سنة ١١٩٨م - ٥٩٤هـ إلى حملة صليبية رابعة، واستجاب له فيها عدد من الأمراء وتولى قيادتها عدد من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وإن كانت الغلبة للعنصر الفرنسي.

وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقوادها رأوا أن يتجهوا بها إلى مهاجمة **مصر** أولاً ثم بيت المقدس بعد ذلك.

وبدأت الاستعدادات بالتعاون مع **فينيسيا (البندقية)** لتمدهم بالسفن واحتشد الصليبيون في **البندقية** في صيف ١٢٠٢م - ٥٩٩هـ ، غير أن البنادقة اشترطوا على الصليبيين ثمناً لهذا التعاون أن يهاجموا مدينة (زارا) ويستردوها من ملك هنغاريا (المجر) واستجاب الصليبيون لذلك، على الرغم من غضب البابا وإصداره قرار الحرمان ضد الحملة كلها ثم قصره على البنادقة أخيراً.

وبينما الصليبيون يستعدون للاتجاه نحو مصر؛ إذا بثورة تنشب في القسطنطينية تطيح بالإمبراطور إسحق الثاني، فيفر ابنه الكسيوس إلى الغرب طالباً المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضاً في مقابل

ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر الأيوبية.

وصادف ذلك هوى في نفس البابا، ومصلحة لدى البنادقة، وتشفياً من الصليبيين في الدولة البيزنطية. فاتجهت جموع الصليبيين إلى **القسطنطينية** واستولت عليها ١٢٠٤م، وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها، حتى منى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الذي بني في عهد بني أمية وقاموا بسلب المدينة. واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكي منذ إنشائها.

ولقد كان من نتائج هذه الحملة: أن فترت همة المحاربين في الحروب الصليبية التالية. لاستيقان الناس بأنها غارات بربرية وليست حروباً دينية، كما زعمت الكنيسة.

بيد أن هذه الحملة عمقت هوة الخلاف بين نصارى الشرق ونصارى الغرب، وجعلت الطريق البري إلى الشام شد وعورة وأعظم خطراً.

كما أغرت هذه الحملة كثيرين من فرسان الصليبيين في الشام، إلى أن يتركوا الشام ومتاعبه، ويتجهوا إلى قبرص أو البلقان ليهنئوا بحياة مستقرة.

وبا جملة فقد أضعفت الحملة الصليبية الرابعة مركز الصليبيين في الشرق الإسلامي وزعزعت مكانتهم. لذلك قرر أحد مؤرخي الحروب الصليبية: ((أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها)).

البندقية (بالإيطالية Venezia ، بالإنكليزية Venice) مدينة بشمال إيطاليا وهي عاصمة إقليم فينيتو وعاصمة مقاطعة فينيسيا. يقدر عدد سكانها ٢٧١ ألف نسمة. المدينة عبارة عن عدة جزر متصلة ببعضها عن طريق جسور. وتطل المدينة على البحر الأدرياتيكي.

تعتبر المدينة من أهم المدن الإيطالية ومن أكثر المدن جمالاً في إيطاليا، لما تتمتع به من مباني تاريخية يعود أغلبها إلى عصر النهضة في إيطاليا وقنواتها المائية المتعددة ما يجعلها فريدة من نوعها على مستوى العالم.

كانت الدقية تتمتع بحكم ذاتي أثناء العصور الوسطى وما بعد ذلك، وكانت تسمى جمهورية البندقية أو Republic Of Venice وتعتبر من أهم مرافئ أوروبا تجارياً أثناء الحملات الصليبية. ومنها انطلقت الحملة الصليبية الرابعة التي دعا عليها البابا أنوسنت الثالث سنة ٥٩٤ هـ - ١١٩٨ م. وتتمتع بقوة بحرية هائلة.

كانت البندقية علاقات تجارية ومالية قوية بوسط أوروبا حيث تقوم بتسويق تجارتها في هذا النطاق. كما توطد فيها نظام البنوك، وكانت لها علاقاتها المتينة مع مصر وشرقي البحر المتوسط ومع العالم الإسلامي تركزت على تجارة الشرق الأقصى والأدنى. وكانت مركز اتصال حضاري بعيد المدى بين الشرق الإسلامي.

قطعات منوعة من البندقية

مدينة البندقية الإيطالية. تأسست في القرن الخامس الميلادي على شواطئ الأدرياتيكي الشمالية، وأسسها بعض سكان أوروبا الفارين من غيرات الهون أثناء اكتساحهم لوسط أوروبة وشمال شرقي إيطاليا. وأصبحت مدينة البندقية في القرن الحادي عشر الميلادي تتكون من سبع عشرة ومئة جزيرة تربط بعضها ببعض الجسور والقناطر وأصبح لها أسطول تجاري وحربي ضخم؛ وكما اهتمت جنوة بتجارة غربي البحر المتوسط، كذلك اهتمت البندقية بالتجارة الشرقية. تشاركها في هذا جنوة وبيزا. وكان للبندقية مدرستها الفنية الممتازة في الرسم والتصوير الخاصة بها.

وبدت جمهورية البندقية منذ القرن الحادي عشر الميلادي جمهورية رستقراطية تركزت السلطة والحكومة فيها في يد فئة من السكان حرصت على المحافظة على حقوقها. حيث تميزت البنية السكانية بنمو الطبقة الوسطى الرجوازية على عكس ما كانت عليه البنية السكانية في معظم أوروبا التي خضعت لنمط الإقطاعي. بل إن هذه المدينة احتفظت بدستورها الجمهوري قرابة سبعمائة عام تقريبا.

قارب يحمل عباب زفة البندقية المائية

تعتبر القوارب الوسيلة الأنسب للتنقل في البندقية

تتميز **البندقية** بكونها عبارة عن أكثر من مئة جزيرة ملتصقة كانت وما زالت من أصعب أماكن التنقل عملياً وهندسياً. حيث لا تزال وسيلة التنقل في البندقية محصورة في القوارب الكلاسيكية المتوفرة بكثرة في المدينة والتي يطلق عليها (Gondola) أو الجنادل وبعض الشوارع خارج قلب المدينة. ولعلك أخي القارئ الكريم تلحظ من خلال هذه الصور في هاتين الصفحتين المتقابلتين والسابقة: طبيعة البندقية الجميلة عبر أزقتها المائية، والذي قام مشكور بتصويرها: لهذا الأطلس التاريخي عن الحروب الصليبية، ابن الأخ المهندس / **ماجد بن أحمد المغلوث**. والذي يرى في الصورة على أحد القوارب الكلاسيكية. حيث تنتشر كما أسلفنا هذه القوارب كوسيلة للتنقل بين جنباتها، وفي القرن التاسع عشر الميلادي تم توفير سكة الحديد إلى البندقية والتي تقع خارج مركز المدينة أيضاً وفي القرن العشرين تم بناء شارع رئيس يوصل إلى المدينة ومواقف عامة. وفي واقع الحال تعتبر المدينة مثالية من ناحية عدم استخدام السيارات والشاحنات على مستوى أوروبا والعالم. واليوم يمكن الوصول إليها جواً عن طريق مطار تم استحداثه مؤخراً ليخدم البندقية والضواحي المحيطة بها وهو مطار ماركو بولو الدولي.

مدينة زارا بجمهورية كرواتيا اليوم

لما تجمع الصليبيون في خريف عام ١٢٠٠ م، ألفوا أنفسهم عاجزين عن جمع المال الذي وعدوا به البنادقة ثمنا لعملية النقل. فاقترحت عليهم ولاية البندقية الإقطاعية أن يقتسموا تسديدها بغزو مدينة زارا ZARA في دلماسيا على أيدي ملك هنغاريا. الفجر ، ورغم احتجاجات البابا ، سرعان ما خف الصليبيون إلى احتلال المدينة في منتصف تشرين الثاني سنة ١٢٠٢ م.

الكاتدرائية القديمة في زارا

في أغسطس ١٢٠٢ م، وصل إلى **البندقية** القائد الأعلى للصليبيين بونيفاس دي مونفيرات، وتواطأ بونيفاس مع دوق البندقية على تحويل الهجوم، ففي ٨ أكتوبر ١٢٠٢م أبحر أسطول الصليبيين من البندقية واحتل زارا المجرية التي دافعت دفاعاً مستميتاً عن كيانها للهدد من قبل الحملة الصليبية الرابعة. وأصبحت زارا تحت حكم البندقية. لذلك أعرب الكرسي الأعلى في الكنيسة عن غضب يليق بالحادثة، ولكنه لم يتخذ إجراءات فعلية، فهدد بحرمان الفرسان من الكنيسة، ولكن الهجوم كان إلى حد ما في مصلحته، فكان وسيلة لتوحيد الكنيسة تحت رايته، فكان تأكيده لتحريم الاستيلاء على أملاك الروم (بيزنطة) مشوباً بفجوات مثل "إلا إذا شرعوا يقيمون دون تبصر العوائق أمام حملتكم"، وفي ٢٤ مايو ١٢٠٣م، غادر الأسطول كورفو التي كانت محطة له إلى القسطنطينية.

في القسطنطينية واجه الصليبيون خصم ضعيف، فبيزنطة أرهقتها الحملات السابقة، والأتاوى والضرائب المتزايدة وتناقصت واردات الدولة، فوصلوا إلى شواطئها في ٢٣ يونيو، وبدأت العمليات العسكرية في ٥ يوليو ١٢٠٣م، ففر إمبراطور بيزنطة اكسيوس الثالث، وعملياً استسلمت القسطنطينية البالغ تعداد سكانها زهاء ١٠٠ ألف في ١٧ يوليو ١٢٠٣م. وجرى تقسيم بيزنطة بين الصليبيين والبندقية ودمرت آثار ثقافة عريقة، وأصبحت أحداث ١٢٠٢-١٢٠٤ تظهر الصليبيين على صورتهم الحقيقية القائمة على الجشع المادي المتلبس بالدين؛ بعد إن كانت كما يزعمون أمراً إلهياً باسم الكنيسة.

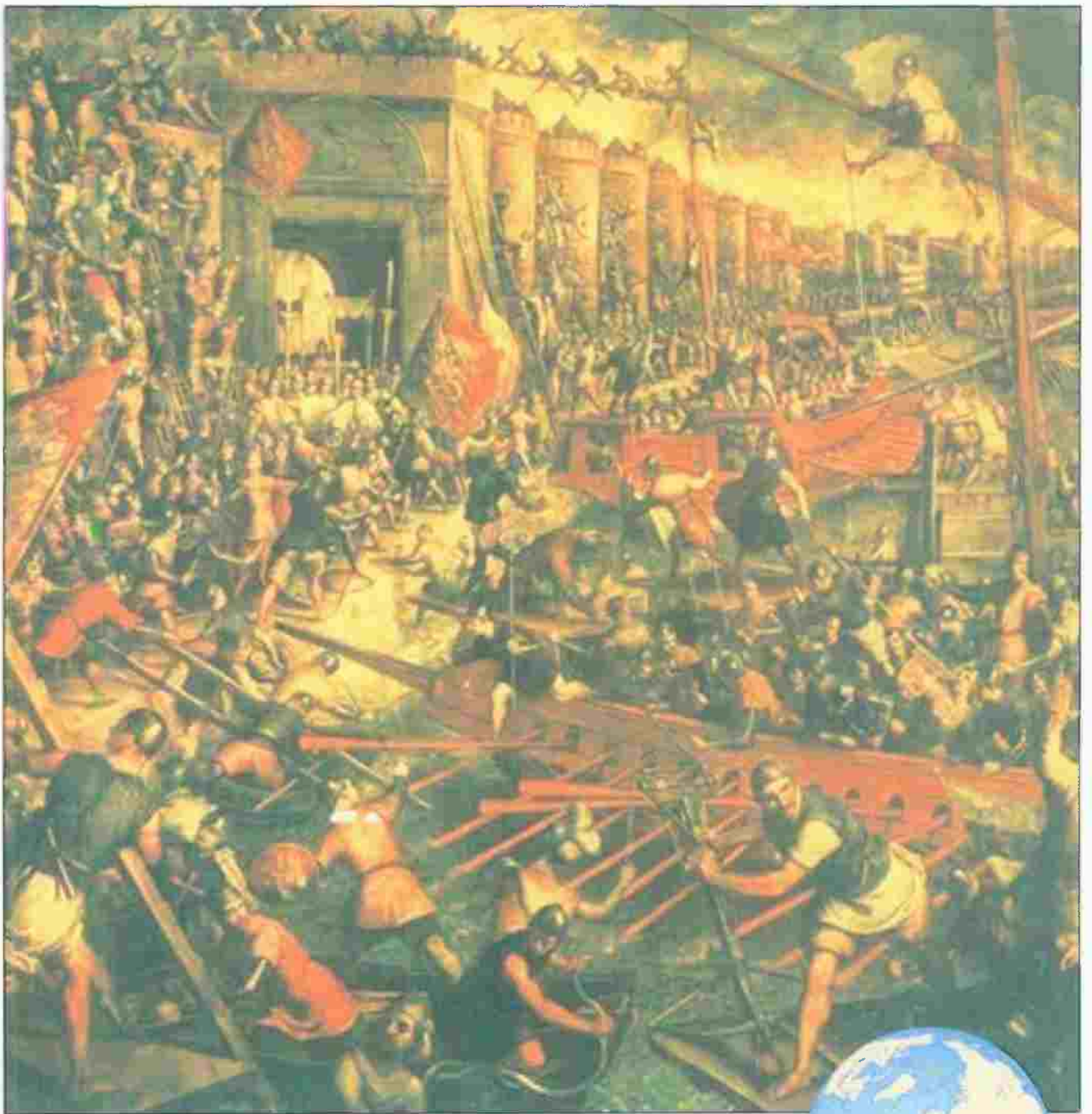

مرتسم لاحتلال القسطنطينية

انتصار القوات البيزنطية على القوات الصيبية واحتلال القسطنطينية البالغ تعداد سكانها زهاء ١٠٠ إلف نسمة آنذاك، في ١٧ يوليو ١٢٠٣م. فقام الصليبيون بتقسيم بيزنطة بين الصليبيين والبندقية ودمر الصليبيون حضارة بيزنطة من جراء هذا الاحتلال.

جاءت الحملة الصليبية الرابعة باستيلاء الصليبيين أصحاب الكنيسة الغربية الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية عام ١٢٠٤م وأسمها أول كاثوليكي منذ إنشائها وبذلك تحولت عن هدفها الأساسي ورسالتها الصليبية، قال عنها أحد المؤرخين الغربيين: (بأنها جاءت تذيراً بفصل الحركة الصليبية بأكملها).

كنيسة آيا صوفيا باستانبول والتي حولها المسلمون إلى مسجد ثم حولها العثمانيون إلى متحف

تأسست **القسطنطينية** عام ٦٥٨ ق.م. وكانت من قبل قرية للصيادين. و تعرف باسم بيزنطة وفي عام ٣٣٥ م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية على اسم الإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية، وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية كنيسة آيا صوفيا (انظر الصورة في الأعلى) .

و كان لسلطان العثماني محمد الثاني فتحها عام ١٤٥٣م . ثم أطلق عليها العثمانيون الآستانة. ويطلق عليها اليوم استانبول.تراجعت أحوالها أثر وفاة الإمبراطور جوستنيان الحازم. و فقدت الكثير من مناعتها جراء **الحملة الصليبية الرابعة** التي أنهكت دفاعاتها. فالمدينة لم تستطع في مائتي عام أن تتعافى من سبي اللاتين أهلها وحرقهم بيوتها ومبانيها وساحاتها. وإذا كان الانشقاق الكبير ما بين الكنيستين قد حصل عام ١٠٥٤م نتيجة التنافس على الأولوية بين أباطرة الشرق والغرب وأحبارهم، فإن الانشقاق قد اتسع كثيراً في العام ١٢٠٤م أي عند دخول الجيوش الصليبية المدينة وحرق مبانيها العامة والخاصة والعبث بكنائسها.

حملة الأطفال

سـنة ٦١٩ هـ - ١٢١٢ م.

قادة الحملة : طفل فرنسي أسمه ستيفن. وآخر ألماني أسمه نقولادي كلونيا .

سـبب الحملة :

أدّعى صبي فرنسي يشتغل برعي الغنم اسمه (ستيفن) أن المسيح عليه السلام أمره بالخروج للمشاركة في الحروب الصليبية، فلبى هذه الدعوة أكثر من ثلاثين ألفاً من أطفال أوروبا من فرنسا وألمانيا، ولاسيما أن رجال الدين النصارى اعتقدوا أن هؤلاء الأطفال سيحققون من الأعمال والمنجزات ما عجز عنه الكبار .

تجمع الأطفال في جنوبي مرسيليا ثم أبحروا إلى شمالي إفريقيا، أما الأطفال الألمان فتوجهوا نحو إيطاليا عبر جبال الألب ووصل بعضهم إلى

برنديزي . انتهى الأمر بحملة ستيفن أن بيعت في أسواق الرقيق في تونس والشرق ،بينما حملة نقولا هلك أكثرها في إيطاليا ومن نجا منها فقد تبناه الإيطاليون .

يرى بعض المؤرخين إن هاتين الحملتين لم تكونا سوى جموع من الأطفال والفقراء الذين استجابوا لمثل الفشل الذي لاقته الحملات السابقة بقيادة الأمراء ، وأنهم الرعيون المتحمسون دينياً والمغامرون للانطلاق بدوافع تحررية ، وذلك اعتماداً على كتابات بردس أحد كتاب الأحداث ، يوصفه لهم بـ" طلائع الريف المتمردة " و" احتياطي الهرطقة " ، وإن تسميتهم بـ حملة الطفولية أ حملة الأطفال جاءت كاستعارة صورية لهذه الجموع ولم تكن ترتيط حقيقة بكون المشاركين فيها من الأطفال ، وإنما لتصوير الحالي أصبح فيما بعد وهم تاريخي .

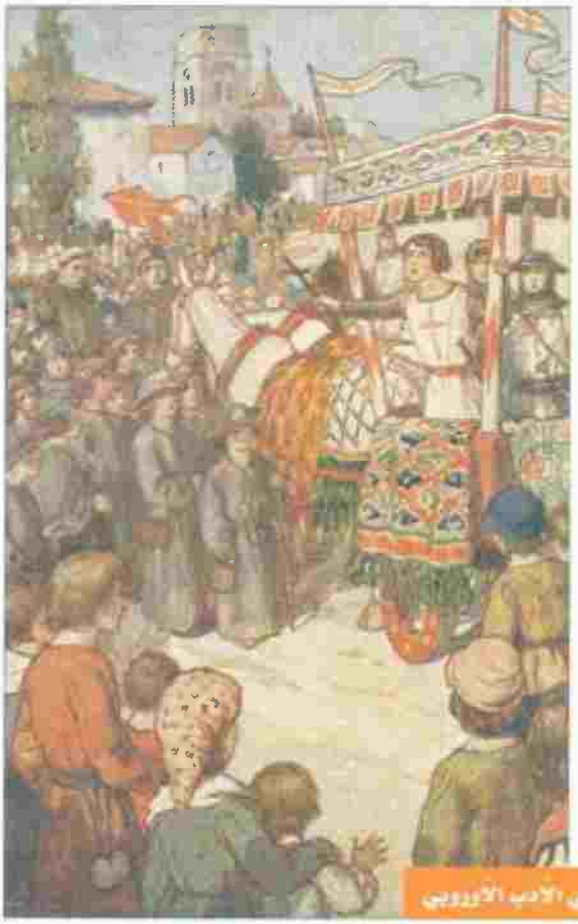

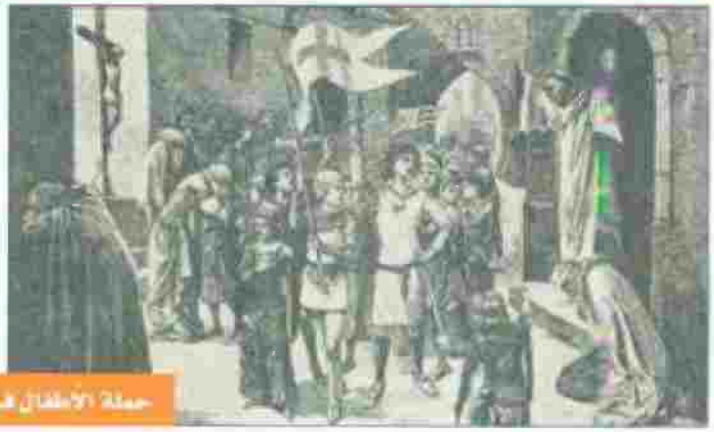

حملة الأطفال في الأدب الأوروبي

أهم مصادر ومراجع الباب السادس

١ - مجلة التاريخ العربي ، أعداد مختلفة .

٢ - مجلة البيان الإسلامية ، أعداد مختلفة.

٣ - د . مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية،دار أسمة للنشر والتوزيع، الأردن، عمّان، ط . الأولى ٢٠٠٤ م.

٤ - د . علي عبد الحليم محمود، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، دار عكاظ للطباعة والنشر .

٥ - موسوعة ويكبيديا على الشبكة العنكبوتية .

٦ - سامي بن عبد الله المغلوث، الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى . دار الوراق، طبع ونشر ١٤١٩ هـ .

٧ - محمد العروسي المطوي،الحروب الصليبية في المشرق والمغرب .دار الغرب الإسلامي، ط . ١٩٨٢ م .